منزلة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ. فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ. وَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ. وَفِي: بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَفِي: بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ. وَفِي: أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ).

(الشرح)

هذه القطعة من العقيدة الواسطية تكشف عن سعة اطلاع شيخ الإسلام –رحمه الله–ومعرفته بمقالات الناس، وإدراكه للفَرق بين الفِرق المتطرفة؛ وقد نبّه على خصيصة بارزة من خصائص أهل السنة والجماعة وسمة من سماتهم، وهي "الوسطية".

قوله: (بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ): قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: ١٤٣]، فأهل الإسلام وسط بين اليهود والنصارى؛ فاليهود ينزعون إلى التشديد والإفراط، والنصارى ينزعون إلى التساهل والتفريط في العقائد، والعبادات، والأخلاق.[١]

قال ابن كثير في تفسيره: (وَالْوَسَطُ هَاهُنَا: الْخِيَارُ وَالْأَجْوَدُ، كَمَا يُقَالُ: قُرَيْشٌ أوسطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا، أَيْ: خَيْرُهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللّه صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَسَطًا فِي قَوْمِه، أَيْ: أَشْرَفُهُمْ نَسَبًا، وَمِنْهُ الصّلَاةُ الْوُسْطَى، التِي هِيَ أَفْضَلُ الصّلَوَاتِ، وَهِيَ الْعَصْرُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصّحَاحِ وَغَيْرِهَا، وَلَمّا جَعَلَ اللّهُ هَذِهِ الْأُمّةَ وَسَطًا خَصّهَا بِأَكْمَلِ الشّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْمَنَاهِجِ وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ) ([٢]).

والعدل والخيرية إنما تُنال بلزوم الصراط المستقيم، **وقد أوضح المؤلف –رحمه الله–هذه الوسطية من خلال خمسة أبواب:**

الأول: قوله: (فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ): انقسم الناس فيه إلى طرفين ووسط:

---

[١] انظر في بيان ذلك: "الوصية الكبرى" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

[٢]) انظر تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥٤).

الطرف الأول: قوم غلوا في الإثبات حتى صاروا إلى التمثيل، وهم أهل التمثيل "المشبهة"؛ يعتقدون أن صفات الله كصفات المخلوقين، وقد تقدم الرد عليهم.

وأول القائلين بالتمثيل في هذه الأُمة هم الرافضة؛ هشام بن الحكم الرافضي [١]، وهشام بن سالم الجواليقي [٢]، وداود الجواربي [٣]، وثلاثتهم من الروافض، كما حكي مقالاتهم أبو الحسن الأشعري في "مقالات الإسلاميين"، ولعل مذهب التمثيل انقرض، أو كاد؛ لشناعته.

الطرف الثاني: قوم غلوا في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل؛ فنفوا عن الله تعالى ما أثبته لنفسه، وقد تفاوتوا في درجة التعطيل على مراتب، كما تقدم بيانه أول الكتاب.

الوسط: وهم أهل السنة والجماعة؛ فقد أثبتوا إثباتًا بلا تمثيل، ونزهوا الله تنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

الثاني: قوله: (فِي: بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ)، أي: مفعولاته من أفعال العباد؛ فقد **انقسم الناس في هذا الباب إلى طرفين ووسط:**

الطرف الأول: قومٌ غلوا في إثبات أفعال الله؛ حتى سلبوا العبد فعله ومشيئته وقدرته، وهؤلاء هم الجبرية.

الطرف الثاني: قومٌ غلوا في إثبات أفعال العباد؛ حتى أنكروا القدر السابق، وهم القدرية،

الوسط: وهم أهل السنة والجماعة؛ فأثبتوا للعبد مشيئة وفعلًا واختيارًا، لكنه داخل تحت مشيئة الله وفعله وقدره، فقالوا كما قال ربهم: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٨-٢٩]. وسيأتي لذلك مزيد تفصيل إن شاء الله.

الثالث: قوله: (وَفِي: بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ)، انقسم الناس حِيال نصوص وعيد الله تعالى إلى طرفين ووسط:

الطرف الأول: قوم مالوا إلى أهل التساهل والتفريط، وعطلوا نصوص الوعيد. وهؤلاء هم المرجئة.

---

(١) هشام بن الحكم الكوفي الرافضي، المشبه، له نظر، وجدل، وتواليف كثيرة، قال في مختلف الحديث: كان من الغلاة، ويقول بالجبر الشديد. وذكر عنه ابن حزم: أنه يزعم أن ربه طوله سبعة أشبار، بشبر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث. مات بعد نكبة البرامكة بمديدة متسترًا، وقيل عاش إلى خلافة المأمون. انظر: لسان الميزان: (١٩٤/٦).

(٢) هشام بن سالم الجواليقي: نسج على منوال هشام بن الحكم في التشبيه، وزعم أن الله نور ساطع يتلألأ، وله خمس حواس.... إلخ من تخريفاته، وضلالاته. انظر: الملل والنحل (١٨٤/١)، مقالات الإسلاميين: (ص:٢٠٩).

(٣) داوود الجواربي: مشبه، أخذ مقالاته عن هشام بن سالم الجواليقي، وزعم أن الله جسم، وجثة على صورة الإنسان؛ لحم ودم وشعر وعظم... إلخ. قال ابن حجر: رأس في الرافضة والتجسيم، من مرامي جهنم، وقال يزيد بن هارون: الجواربي، والمريسي كافران.

الطرف الثاني: قوم مالوا إلى التشديد والإفراط، وقالوا بإنفاذ الوعيد، وإنكار الشفاعة. وهؤلاء هم الوعيدية، وهم صنفان: الخوارج والمعتزلة.

الوسط: وهم أهل السنة والجماعة، قالوا: إن من توعده الله تعالى من عُصاة الموحدين فهو يوم القيامة تحت المشيئة والإرادة، إن شاء الله تعالى عفا عنه، وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة. كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، وأثبتوا أحاديث الشفاعة. وسيأتي لذلك مزيد بيان.

الرابع: قوله: (وَفِي: بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ)، المراد بذلك الأسماء والأحكام، فإن الله تعالى قد قسم الخليقة إلى قسمين: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [التغابن: ٢]، **فانقسم الناس في حكم الفاسق الملّي، مرتكب الكبيرة، إلى طرفين ووسط:**

الطرف الأول: قوم شددوا، وسلبوا الفاسق الملّي اسم الإيمان، وهم صنفان:

أحدهما: الحرورية "الخوارج": قالوا: يسمى كافراً.

الثاني: المعتزلة: قالوا: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر! صار في منزلة بين منزلتين؛ لا مؤمن ولا كافر! وأتوا بقول لم يُسبقوا إليه.

الطرف الثاني: قوم تساهلوا في اسم الدين والإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة في الآخرة، فقالوا: من عرف أو أقرّ بقلبه فهو مؤمن كامل الإيمان؛ إيمانه كإيمان جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، وكإيمان أبي بكر وعمر! وهو من أهل الجنة. وهؤلاء هم المرجئة والجهمية.

الوسط: أهل السنة والجماعة: قالوا: مُرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان؛ مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. والمؤمنون أطباق كما قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر: ٣٢]. وكل هؤلاء الثلاثة مُصطَفون، مستحقون لوصف الإيمان، لكن منهم صاحب الإيمان الكامل، ومنهم صاحب الإيمان الواجب، ومنهم ناقص الإيمان؛ فالصنفان الأولان يدخلان الجنة برحمة الله، والصنف الثالث تحت المشيئة والإرادة؛ كما تقدم، وسيأتي لذلك مزيد بيان.

الخامس: قوله: (وَفِي: أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ)؛ انقسم الناس في باب الصحابة إلى طرفين ووسط:

الطرف الأول: قوم غلوا في عليٍّ رضي الله عنه وآل بيته، ورفعوهم فوق منزلتهم. وهم الرافضة، وهذا هو الاسم الذي كان السلف -رضي الله عنهم-يُطلقونه ضلّال المتشيعة؛ وذلك أن التشيع مرّ بمراحل مُتعددة؛ فكان في مبدأ أمره تشيعًا سياسيًا؛ بمعنى المناصرة؛ يُقال: شيعة علي، وشيعة معاوية، وشيعة عُثمان، بمعنى حزبه، وأنصاره، ومؤيديه، ثم تحول إلى تشيع بدعي؛ ادعى أصحابه أن الإمامة في عليٍّ، وذريته، وقضوا ببطلان خلافة من سواهم، ثم إن التشيع انحط إلى دركات شركية من الغلو في الأئمة، وضلالات كفرية؛ من الزندقة، والباطنية؛ كالدروز، وإخوان الصفا، وخلان الوفا، والقرامطة، وفاهوا بمقالات شنيعة، حتى إنه قد وُجد في زمن عليّ -رضي الله عنه- من زعم أن عليًّا هو الله؛ وهم السبأيّة، فخدّ لهم الأخاديد، وحرقهم بالنار، وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا مُنكرًا أججت ناري ودعوت قُنبرًا (١)

الطرف الثاني: قوم جفوا عليًا، وآل البيت، وأصحاب الجمل، وصفين؛ وهم الخوارج؛ فإن الخوارج أبغضوا عليًّا، وكفروه، وهؤلاء هم المُحكّمة الأولى الذين انشقوا عن جيش علي، بعد صفين، وقضية التحكيم، وقالوا: قد كفرت! حكّمت الرجال في كتاب الله، {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]، وصاروا يصرخون بذلك في مسجد الكوفة، حتى قال عليّ -رضي الله عنه-: كلمة حق أُريد بها باطل، ولم يزل شرهم يستشري حتى جرد لهم -رضي الله عنه-جيشًا من الصحابة؛ من المهاجرين والأنصار، فقاتلوهم، وقتلوهم في معركة النهروان المشهورة.

الوسط: وهم أهل السنة والجماعة، فقد عرفوا لأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فضلهم، وأنزلوهم منازلهم، وترضوا عنهم، وأحبوهم في ذات الله، وعرفوا لهم سابقتهم، وذبوا عن أعراضهم، والتمسوا لهم المعاذير، فيما قد يكونوا أخطئوا فيه.

فتبين أن أهل السنة، بحمد الله، وسط بين طرفين، وعدلٌ بين عِوجين، في جميع أبواب الاعتقاد، بل إن هذه الوسطية سارية في جميع أبواب الدين؛ في الاعتقاد، والعبادة، والأخلاق، والسلوك، فهي سِمة، ومِزاج، وتكيُّف؛ ينبغي لطالب العلم أن يكتسبها، وأن تمتلئ نفسه غِبطة بها، فإنه كما قيل:

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأُمور ذميم (٢)

فعود نفسك يا طالب العلم أن تكون مُطمئنًا، وادعًا، ساكنًا؛ لا يحملك نزق، وغضب، وحمية، وطفرة، أن تشتط يمينًا، وشمالًا؛ اعلم أن الحق، دائمًا، معه سكينة، وبهجة، وطُمأنينة؛ فإن آنست في نفسك، أو في غيرك شيئًا من هذه النزعات، فتوجس ريبة، واحذر أن تنقل خُطاك قبل أن تتوثق من

---

١) أخرجه الآجري في كتاب الشريعة: (٥/ ٢٥٢٠)، وابن الأعرابي في معجمه: رقم (٦٧).

٢ قاله أبو سليمان الخطابي.

موضعها، واعتصم بالكتاب والسنة؛ فإن النفس لها آفات، وقد يُخيل للإنسان في وقت من الأوقات أنه إنما غضب لله، وأنه انتصر لدين الله، وقد لا يكون على نور من الله! فسل الله دومًا أن يمن الله عليك بالسكينة، والاعتدال، والاستقامة، والتوسط.

وتأمل حال أولئك النفر الذين أتوا النبي، صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أَنَس بْن مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[1].

فدين الإسلام دين وسطي؛ يُلبي حاجات الروح وحاجات البدن، وسائر الحقوق، (إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ)[2]، فعليك يا طالب العلم أن تتشرب وتصطبغ بهذه الصبغة الوسطية، ولا تنجرف يمنة ولا يسرة.

واعلم أن معيار الوسطية هو النص والدليل، فإن من الناس من يرى نفسه في موقع الوسط، ويرى الآخرين في الأطراف يمنة ويسرة، وهذا ليس صوابًا! يجب أن تُحدد نُقطة الوسط بما دل عليه الكتاب والسنة، لا بالأهواء والأمزجة والآراء.

من الناس من يُقارف معصية، ويقول: أنا أحسن ممن يفعل كذا وكذا، أنا لست مثل من يفعل كذا وكذا! ويظن أنه بذلك قد توسط، وقد يكون أقرب إلى الوسط ممن عابهم، لكن لا يعني أنه في الوسط؛ إن الذي يُحدد الوسطية هو الشرع، وما كان عليه النبي، صلى الله عليه وسلم؛ فإن الله وصفه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، ومن الناس من إذا احتججت عليه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر من الأُمور قال: هذا رسول الله! أين نحن منه؟ فأين هو من قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [الأحزاب: ٢١]. فعليك أن تنتبه لهذا المنزلق، وألا تُجر لنوع من خِدع النفوس وحِيلها وآفاتها؛ فتقع في شيء من الشطط بدعوى الوسطية.

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم: رقم (١٤٠١).

[2] أخرجه البخاري: رقم (١٩٦٨).

ومبحث الوسطية مبحث مُهم، ينبغي لطالب العلم أن يعتني به، ومن تأمل شرع الله، عز وجل، وجده عين الحكمة، وعين المصلحة، لكل زمان ومكان، ولكل جيل وقبيل؛ يُدرك ذلك الراسخون في العلم.